دور الإعلام وقنوات التنشئة الاجتماعية الأميركية في تصدير الكراهية بإزاء العرب والمسلمين

أ. م. د. كامل القيم*
باحث وأكاديمي من العراق

* كلية الفنون الجميلة ـ جامعة بابل.
** عضو في مركز حمورابي.

مقدمة

لا أحد يشك في أن المتغيرات المسرعة والمتدفقة في العالم العربي، تكاد تكون بفورية غير مسبوقة، تلك الفورية في المتغيرات شديدة الانحدار لم تكن فقط على مستوى ثورية الشارع العربي وانتصاراته المتوالية على الانظمة اللاصقة منذ عقود، بل يمتد الأمر إلى أن يغدوا مرجل التغيير، ينفجر بشكل أكثر هولاً في عالمنا المكبل بالمسكوت عنه، والبطيء النسبي الذي طالنا حينما حدثت صفحات التغيير الكبرى في التسعينيات، واذا كانت العقلية العربية قد أفردت لها وبحكم تصورات ومساند موروثة (من مثل الأنا القومية والتفسير الديني والموروث الملّغم جملة من التبريرات)، والتي لم تصمد طويلاً بإزاء حتميات متشابكة ومتصاعدة عاشها ويعيشها العالم العربي في سنواته الأخيرة، والتي أفرزت وستفرز لنا العديد من المفاجآت على مستوى السياسة والثقافة والاقتصاد والحراك الاجتماعي.

فإن مد التغيير جارف وآخذ في التصاعد وبواقعية سياسية وثقافية أكثر اشراقاً وإلح مطلباً، وتعد خريطة تلك الحتميات ولنقل (الظروف الموضوعية)، التي استكانت عنها واوضعتها الانظمة السائدة في حاضنات المستقبل، وبالخط الباهت وتحت نقش الانحراف الوطني أو القومي، حينما **امتد نوم الشارع العربي بخساراته الزمنية والفكرية على وقود الصراع العربي الإسرائيلي (آلية تخدير الانظمة لشعوبها)، وملهات الطاقة العربية بكل مواردها وبواباتها الواعدة، بعدما عالجت ذلك الصراع بالرمز الدعائي والتطبيعي الخانع الذليل، مما جعل إسرائيل واقعاً مُراً وخطراً اقليمياً جاثماً على اجيالنا**

الغرب قد أدخل (للشعوب المقهورة) صورة نمطية زائفة، على أن التغيير نحو الديمقراطية يجب أن يأتي بأي ثمن.

اللاحقة، ولو نظرنا إلى خرائط التغيير التي تجعل من العالم العربي سائر إلى أزمة حقيقية في الهوية وترصين ذاته الثقافية، من خلال مؤشرات دخلت على الخط، منها استحكامات أو حتميات، ومنها عوامل طرد وجذب في واقع عربي سريع التغيير وفي تشتت وعدم ثبات، يصل إلى حد التناقض في آحيان كثيرة، ومن بعض بأرقات ونتائج تلك العوامل الآتي:

1 ـ تصاعد الميل إلى الكوكبية (عولمة السياسات Globalization Politics)، أي وجهات النظر الكونية في قضايا الشأن السياسي وشكل الانظمة ونموها وأزماتها. بالشكل الذي تعولمت فيه مصائر وثقافات وخصائص شعوب لصالح أخرى، تحت مسمى (الشأن، السلم، الأمن، تأزم، انفراج، إرهاب دولي)، وهنا اضيفت دولي (International) لتشير إلى أن حدود الدولة القومية، قد ألغي ليصبح من حصة الأطراف الدولية الكبرى في السير بعجلة التحكم في العالم (كما في القضية العراقية والسورية والليبية وافغانستان والسودان)، وقد كان الغرب قد أدخل (للشعوب المقهورة) صورة نمطية زائفة، على أن التغيير نحو الديمقراطية يجب أن يأتي بأي ثمن، سواء أكان تدخل عسكري أم استخدام ناعم لبروتوكولات أم لعصف دعائي...، سيكون الهدف واضحاً ومحدداً ومسوغاً، تحت شرعية المصلحة الدولية ومحاربة الإرهاب وإنقاذ الشعوب من كنف الثورية والراديكالية إلى العالم المدني، المسرع نحو النمو.. والتحضر.

ببساطة كانت تلك الأفكار التي عرجت عليها الحكمة السياسية الغربية على الأقل في السنوات العشر الأخيرة، وأدت دور الوصاية على العالم وإعادة هيكلته وتنظيمه وتنظيفه، بحسب (هرمية Pyramid) مصالح الغرب .وهكذا كان المنظرون قد عجزوا في إيجاد مخرج من ذلك التناقض اليومي، الذي يُؤشر على وسائل الإعلام ـ وبالأخص في الدول الناشئة الديمقراطية ـ ، إذ في الغالب تُصاب بالوصاية من أحد أطراف الصراع أو التدخل الخارجي أو الدول والقوى المحيطة أو الكبرى، هكذا يروي لنا التاريخ الكثير مما عملته وسائل الإعلام على تفتيت البناء الاجتماعي للمجتمعات السريعة التغيير والمتعددة الاثنيات

يروي لنا التاريخ الكثير مما عملته وسائل الإعلام على تفتيت البناء الاجتماعي للمجتمعات السريعة التغيير والمتعددة الاثنيات والأديان والقوميات.

والأديان والقوميات، كما حدث في استهداف البروباغندا نحو (يوغسلافيا، وأوكرانيا، وإيران، والصين، وجمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق والسودان... وأخرها العراق وسوريا... والقائمة تطول).

2 ـ الانفجار الهائل في بنى الاتصال والاعلام، الذي تحول وصفه من القرية الكونية إلى الشاشة الكونية، بفضل آليات نقل المعلومات الرقمية وتنشيط الاعتمادية بشكل كلي وحتمي على انسيابها عبر الأقمار الصناعية.

3 ـ التشبيك Netting الدولي على جملة من القضايا التي لم تعد من مسؤولية الحكومات، بعد أن ألغت الحدود الوطنية وتحول مفهوم المواطن (إلى مواطن كوني)، وليس بالضرورة تتحكم به هويات المجتمع ومرجعياته.

4 ـ عدم وجود طبقة سياسية شابة تقود تلك المتغيرات، وتوجد خطاب وتنشئة سياسية محدثة لبناء واقع عربي خصمه التخلف والتوريث والاتكاء على الماضي.

5 ـ التراجع الواضح في البنى التحتية للخدمات العامة وتفشي البطالة والأمية بنوعيها (التعليمية والتكنلوجية)، فضلاً عن تصاعد المشكلات الثقافية والاثنية في معظم أوطان الشراكة[1] في بعض الاقطار العربية (كالعراق ولبنان، والسودان، ومصر، وسوريا، والبحرين).

(1) أوطان الشراكة: نقصد به الدول العربية التي تحمل طابع التنوع الديني والاثني ولها ثقافات متعددة تبعاً لذلك.

6 ـ تصاعد العمل بالمشروعات الاستثمارية الاعلامية، فالدول العربية تحمل عدداً هائلاً من قوى الإعلام والاتصال التي تمول بمال عربي أو أجنبي بقصد الربح والترويج والاعلام، واخذت تلك المشروعات بالتزايد حتى امتدت للمستوى الشخصي[2].

(2) اخذت بعض الشخصيات السياسية وبعض اصحاب رؤوس الاموال بافتتاح قنوات تلفزيه وصحف ومحطات راديو بهدف الترويج أو التأثير في الرأي العام لأهداف متعددة، كما أن القوى السياسية والدينية والحكومات تمددت في تمويل وادارة تلك المشروعات.

7 ـ متغير التواصل وبالتالي(التفاعل الاجتماعي interaction Public): ففي الوقت الذي تتنامى قوى الاتصال التقني وتنشط التفاعل والتجديد المعلوماتي، نشهد ويشهد العالم نوعا من التراجع الاتصالي للوسائل التقليدية، كالحوار واللقاءات الشخصية مما أضعف بنية المجتمعات الحقيقية في التقارب (الفيزيقي)[3]، فيما اتسعت دائرة ثقافة الصورة لتصبح هي البوصلة وأدوات الإثارة والتحريك عبر الصور والأفلام الرقمية، التي تنتج وتصنع وترسل وتستهلك عبر الحاسب، ومن ثم الاتساع إلى تشبيك وتوسيع مديات التأثير عبر الانترنت وانظمته اللحظية في نقل المعطيات، كل هذا

(3) الفيزيقي هنا يأتي للحوار والمجابهة وجها لوجه وباستخدام علامات ورموز الجسم بكليتها كالصوت والهيئة والاشارة، ويعد حضور الإنسان وجوده جسمه هيئته الحقيقية حضوراً وفعلاً (فيزيقياً) (الباحث)

جعل المواطن العربي يتماهى من جمال وهدوء وإمكانية أن يكون سحر التكنلوجيا الرقمية، هي الحل سواء أكان في الهروب من الواقع أم على مستوى الاعتماد على الانفتاح والتطوير في التنشئة السياسية أم الثقافية.

8 ـ تصاعد الاعتمادية الفردية والمجتمعية للمواطن العربي على التلقي الاعلامي، وهناك فئة كبيرة جداً أصابها الإدمان التلفزيوني[4]، من قبيل التعرض والاستهلاك للرسائل الفضائية.

وفي ظل مشاهد ومتغيرات أخرى على مستوى الاقتصاد والتعليم واتساع وانتشار المعرفة، كانت المجتمع والعلاقة بين تكنولوجيا الإعلام والثقافة والعولمة علاقة وطيدة، فوسائل الإعلام والاتصال هي الناقل الرئيس للثقافة، وهي أدوات معرفية تساعد على دعم المواقف أو التأثير فيها وتنميط السلوكيات وتعزيزها ونشرها. والدول الغربية المسيطرة على تكنولوجيا الإعلام والمعلومات، لا تصدر الينا المعلومات المسموعة منها والمرئية والمقروءة، سعياً وراء المكاسب (المباشرة) فحسب، إنما القصد أيضا التأثير (Effect) في الأفكار وتخريب العقول ومحاولة اقتلاع القيم والتقاليد والعادات من جذورها واستبدالها بقيم أخرى غريبة، والدول النامية معرضة للغزو الثقافي وتدفقت المعلومات المسيسة عليها.

(4) الادمان التلفزيوني: مصطلح يطلق على حالة المجتمع أو الفئة أو الفرد الذي يجعل من التلفاز الاداة الرئيسة في تناول معلوماته وقضاء اوقات الفراغ بالشكل الذي لا يستطيع الانقطاع عنه، ويشكل هذا المنحى صناعة عوالم افتراضية خطرة جدا على معايشته الواقع وهذا ما اصيب به الكثير من الشباب العربي في ظل الادمان على السماع أو التعرض أو الاستخدام لبعض قنوات الميديا والموسيقى والاتصال (الباحث) حول موضوع الادمان التلفزيوني راجع تفصيلاً: ماري واين: الاطفال والادمان التلفزيوني، تر: عبد الفتاح الصبحي، سلسلة عالم المعرفة (247) (الكويت: المجلس الوطني للثقافة1999،)

أصبحت المظلة الاتصالية أو المراهنة على تكنولوجيا الاتصال بمثابة الخيار الاستراتيجي للبلدان المتقدمة، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية.

ومن خلال التحسينات التقنية لبنى الاتصال وشيوع استعمال الفضاء واقترانهما، انتقلت الوسائل الجماهيرية إلى نمط وهوية جديدة، أظهرت تسخيرها الواضح للحرب القادمة (حرب المعلوماتية) أو حرب الثقافات عبر الفضاء، وهذا بدوره قد أضاف متغيرات جديدة في صناعة الرسائل الجماهيرية، تداخلت فيها كثافة واتساع الوظائف والأهداف سياسياً واقتصادياً وحضارياً[5].

(5) كامل حسون القيم، بناء الاتصال ومشكلات التعرض الاتصالي، اطروحة دكتوراه، جامعة بغداد، قسم الإعلام، 2000، ص46.

وبذلك أصبحت المظلة الاتصالية أو المراهنة على تكنولوجيا الاتصال بمثابة الخيار الاستراتيجي للبلدان المتقدمة، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية في ظل العولمة، اذ تبلغ نسبة نمو الصناعات الاتصالية فيها (8%) سنوياً، وقد اعتمدت الحكومة الأمريكية فعلاً على الخيار الاتصالي من خلال تبنيها منذ سنة 1993 على قطاع لتعزيز القدرات الاتصالية من خلال برنامج سمي (الطرق السيارة للاتصال)، اعتماداً على تطور شبكات

معلوماتية عالمية تعتمد الإنترنت والهاتف والأقمار الصناعية والكومبيوتر، لإقامة آلية متكاملة لانتشار النماذج الثقافية والمعلومات.[6]، وهذه الانتقالية الجديدة قد أوجدت المؤشرات الآتية[7]:

1 ـ تعمقت الهوة بين الدول الكبرى والنامية من خلال خلق سوق ثقافي واتصالي دائم ومتعدد، عَمقَ التبعية أو الاعتمادية على الآخر، النامي باتجاه المتقدم.

2 ـ إعاقة الاتصال الحقيقي بين الناس (فكل الناس يتخاطبون مع بعضهم البعض ولكن لا أحد يلتقي بالآخر).

3 ـ الاندماج الذي حصل في الوظائف، السياسية، الثقافية، التربوية، . . .الخ، تحت مدخل الترفيه لجذب آلية ونمط تعرض اكثر واشد.

4 ـ هذا الوضع يعزز حرمان دولاً وشعوباً كثيرة من المشاركة والإفادة من هذه التكنولوجيا، اذ ستزيد الفوارق الثقافية والعلمية (فجوة المعرفة) بين الطبقات الفقيرة والقروية والمنعزلة عمن يستعملون ويملكون سبل الاتصال.

5 ـ انشغال مؤسسات الاتصال في الدول النامية في تبني الوافد من الرسائل، وارضاء أذواق المشاهدين من خارج حدودها الوطنية، على حساب خططها وبرامجها المحلية، مما ولد ابتعاداً عن توظيف الموروثات الشعبية وانحسار الأعمال الدرامية.

اولاً: التواتر الرقمي يزاحم الهوية. . . ويؤرجح المواطنة

ليس من باب الصدفة أو العجب أن يبدي الكثير من أهل الفكر والتاريخ تخوفهم مما يجري في مسرح التناغم التقني مع سوق الاتصال والمعرفة، وكانت تلك الخشية والتوجس منذ مطلع التسعينيات، حينما بدأ التنشيط الفضائي على مستوى استخدامات الانترنت والعمل بالاستهداف عبر الفضائيات، وكجزء من تسخين مرجل العولمة المتصاعد، تلك الدعوات والصرخات كانت بطبيعة الحال، وكما تعودنا أن نعدها نقصاً في مؤن البدائل وردت فعل طبيعية على كل (وبالفطرة)، على أن نجعلها بارقة المفلسين والمتآمرين على التكنلوجيا والانفتاح، كما أعدت في ورقات بحثية عديدة أنها الهزيمة الفكرية والمعرفية للنتاج العربي، الذي أصبح في حلبة حقيقية للصراع مع الغرب المتهيء.

(6) ينظر من هذا البرنامج في:
أ ـ عبد الحفيظ الفرهام، الثورة الاتصالية والواقع الثقافي الجديد، مجلة الإذاعات العربية، تونس اتحاد الإذاعات العربية، ع3، 1998، ص8.
جوزيف اس ناي ووليم أي وانيز، المعلوماتية الأمريكية موارد قوة المستقبل، ت شامل سرسم، مجلة شؤون سياسية، بغداد، ع6-7، س2، 1996، ص90-102.

(7) كامل حسون القيم، بناء الاتصال ومشكلات التعرض الاتصالي، م س، ص47.

كانت تلك ملامح واقعية وواضحة ومترقبة من قبل أهل الفكر والتربية والقانون والسياسية، ولكن وبذات العقلية التأجيلية قد تعاملت مؤسسات التغيير[8] الأساسية مع هذا القادم بجملة (نحن أهل الفكر والثقافة والقيم)، وعليه كان القادم أعتى وأكثر هولاً وخشية مما كان المتوقعون من أهل التحسب والتخطيط البسيط .على الرغم من هناك طروحات ترى أن (انتشار التجديد لا يحصل من الخارج نحو الداخل، عدا بعض الحالات التسلطية، بل من الداخل نحو الخارج ذلك أنه لا يقوم على سيرورة استقبال سلبي بل على ممارسة خيال ذاتي)[9].

(8)مؤسسات التغيير: وهي المنظومة التي ترتكز على التنشئة والتغيير في البنى السلوكية، وتصون الاتجاهات والمرجعيات للأفراد والمجتمعات المحلية، بالشكل الذي يتماشى مع القيم والعادات والثقافة الإسلامية والشرقية، وتكون مصدر تغذية مستدامة للفرد والمجتمع ومنها (المؤسسة التربوية، ووسائل الاعلام، والخطاب السياسي، والمؤسسة الدينية، وقادة الفكر والرأي).

(9) مجموعة من المؤلفين: اشراف فرانك مرمييه: **الفضاء العربي** (دمشق: قدمس للتوزيع2003،) ص15.

ومنذ ذلك الحين كان الأدب السياسي والمعرفي الحديث تداول مصطلحات لغوية استحدث دلالتها من اشتقاقات لغوية خاصة، وقد أسهمت وسائل الإعلام إلى حد كبير، بقدراته التداولية والتبادلية (Deliberation) على نقل وتفصيل تلك المفردات، بل تكريس استخدامها العلمي تزاوجاً مع المعطيات الثقافية الأخرى عبر ـ ثقافة الصورة ـ والشكل ـ والسلوك، والذي في ظل العولمة استفردت به الولايات المتحدة الأمريكية باعتباره إحدى خيارات الوصول إلى (أن يكون القرن الواحد والعشرين أمريكياً).

نعم أن العالم ينفتح على بعضه، وتزداد سرعة وفورية انتقال المعلومات وتتسع السوق وتزول وتتهمش الحواجز أمام انتقال السلع والخدمات والأشخاص والمعلومات والأفكار، ولكن التساؤل الذي يطرح نفسه.. ما الذي يجري عولمته؟ ليس إلا ثقافة معينة بذاتها مصحوبة بسلع وخدمات بعينها، مما يجعل مقولة (فرنسيس بيكون) (Francis Bacon) الشهيرة (المعرفة قوة) تضع بضلالها على معترك الصراع الحضاري، إذ يرى إدوارد سعيد الخطوط العامة لهذا المعترك بالقول: (أن النظام العالمي الذي ينتج الثقافة والاقتصاد والقوة السياسية جنباً إلى جنب مع (معاملاتها) العسكرية والسكانية، ليملك ميلاً لإنتاج صور عبر قومية خارجة عن القياس تمارس الآن إعادة توجيه الإنشاء الاجتماعي والانتماء الوطني)[10].

(10) د. صباح الياسين، الإعلام والعولمة، في العولمة والمستقبل العربي، بيت الحكمة، سلسلة المائدة المستديرة (37)، بغداد، 1999، ص28-29.

وانطلاقاً من مبدأ التدفق الحر للمعلومات، ترى الولايات المتحدة الأمريكية أن دخول السلع الثقافية الغربية إلى شعوب العالم الثالث سيمكنها في فترات لاحقة من الاعتماد على نفسها وبلورة إنتاجها المحلي، وأن المواد الثقافية والثقافات عموماً يجب أن تتنافس فيما بينها، مثلها في ذلك مثل السلع

المواد الثقافية والثقافات عموماً يجب أن تتنافس فيما بينها، مثلها في ذلك مثل السلع التجارية العادية في الأسواق الحرة.

التجارية العادية في الأسواق الحرة، على أن تكون الغلبة للأصلح والأفضل، وتنطلق تلك الطروحات من الواقع السياسي والأيديولوجي والاقتصادي الذي يحكم فكر الغرب، من الهيمنة والسيطرة على الشعوب، ذلك أن مفهوم الهيمنة الاتصالية كما يعرفها (Boyed - Barrett) 1977 على أنها (العملية التي يخضع بموجبها نظام أو نظم الاتصال ـ من حيث الملكية ـ والبناء ـ والتوزيع والمضمون ـ لدولة معينة أو مجموعة من الدول لنفوذ وحفظ المصالح الاتصالية لدولة أخرى أو أخرى دون تأثير معاكس ومتوازن من الدولة التي خضعت للهيمنة)[11].

ويشير تنستال (Tunstall) إلى أن هيمنة وسائل الاتصال الأمريكية تعود إلى أسباب متعلقة بطبيعة منتجاتها، الذي يتميز بانخفاض سعره وارتفاع جاذبيته، وفي الوقت نفسه قدرته على مجاراة الأذواق الشعبية بشكل عام، الإضافة إلى القدرة الأمريكية أو الانجلو ـ أمريكية على استيعاب العملية الاتصالية ـ، بالأخص في مجال التلفزة قد أدت إلى تسيد المنتوج الغربي دون سواه[12] من خلال عامل الخبرة والاستثمار المالي الكبير وأخطبوطيه مراكز التأثير عبر العالم، ولما أضحت التكنولوجيا (سيّما رافدها في الإعلام والمعلومات والاتصال) معرفة والمعرفة شكل من أشكال التكنولوجيا، فإن التساؤل في التوزيع العالمي الجديد للمعرفة إنما هو من التساؤل في القطبية الجديدة التي بدأت، منذ مدة، تطاول العلاقات الدولية والتي تؤسس لتراتبية جديدة قوامها الأساس مدى احتكام هذه الدولة (أو المجموعة)، أو تلك لناصية «تكنولوجيا المعرفة»[13]، (أعتدةً ومضامين) ومدى قدرتها على بناء منظومة «للرأسمالية الرمزية»[14]، تتجاوز منظومات إنتاج الثروات المادية واللامادية التي كانت سائدة إلى حين نهاية سبعينات القرن الماضي.

ولما أضحت المعلومات والمعرفة مصدر القوة والسلطة بداية هذا القرن، كان الوقوف من جديد عند الواقع المتردي لمنظومة العلم والتكنولوجيا بالوطن العربي (سيّما تكنولوجيا الإعلام والمعلومات والاتصال)، إنما غرضه التدليل على المكانة المتدنية للوطن إياه على مستوى بنية إنتاج وتوزيع واستهلاك المعلومات والمعرفة. ذلك لأن التكنلوجيا انتاج معرفي اجتماعي ثقافي يشمل الافكار والمعتقدات والسلوك والتصورات والقيم، والتي يستمدها الفرد من خلال تعامله مع الطبيعة والمجتمع، لأنها أي التكنلوجيا

(11) محمد نجيب الصرايرة، الهيمنة الاتصالية: المفهوم والمظاهر، مجلة العلوم الاجتماعية، الكويت، ع2، مج18، 1990، ص132

(12) المرجع السابق، ص132-133.

(13) يحيى اليحياوي، في العولمة والتكنولوجيا والثقافة: مدخل إلى تكنولوجيا المعرفة"، دار الطليعة، بيروت، 2002.

(14)ورد هذا المصطلح كأساس تطبيقي للشعوب النامية، والتي تريد أن تركب موجة التكنلوجيا والحضارة، ليس على اساس موروثها الحضاري وقيمها، ونبهت إلى التشتت المستقبلي فيما لو لم تبني لها رأسمالية رمزية، أو افق جديد باتجاه تشكيل قوة معرفية من الرموز القابلة للتشبيك مع المعطيات الكونية الجديدة ينظر:
Vercellone. C, «La question du développement à l'âge du capitalisme cognitif», The Third World Forum, Forum du Tiers Monde, 2003. نقلاً عن:
يحى اليحياوي: العرب والتكنلوجيا والتوزيع العالمي للمعرفة (المقدمة) موقع المؤلف على شبكة الانترنت.

قبل أن تكن آلة فهي فكرة تولدت عن حاجة أو رغبة اجتماعية في زمن محدد. ومن ثم فهي مصب عارم نحو كل ما ينتجه وما يعتقده وما يسلكه الفرد والمجتمع من نشاطات، ويرى ذلك (د. هاملتون Dr.Hamilton)، والتي حددها على أنها (الوسيلة التي بواسطتها يمكن للإنسان أن يوسع نطاق سلطته على ما يحيط به)[15].

(15) ينظر: فضيل دليو، التكنلوجيا الجديدة للإعلام والاتصال: المفهوم- الاستعمالات- الافاق (عمان: دار الثقافة2010،) ص22

لم يفرز الواقع ذلك ولا المكانة تلك تعميقاً للفجوة الرقمية (الملازمة للتوزيع العالمي للتكنولوجيا)، المتزايدة المد بين الدول المتقدمة والبلدان العربية، بل أفرزت معها تشوهاً أعمق على مستوى بنى التنمية الإنسانية العربية (وداخل البلد الواحد)، لا يتراءى لنا من سبيل لتجسيرها وردم هوتها، إلا البدء في بناء منظومة علمية وتكنولوجية دامجة لكل البلدان العربية على أساس التكامل بين من لديه المال فقط، وبين من يمتلك قدرات بشرية ترتكن في غالبها الأعم لسلك سبيل الهجرة للخارج[16].

(16) المرجع السابق.

وخلاف ذلك التردي في مجال المشاركة الحقيقية والمتكافئة في مجال شغل حيز متكافئ، أو فلنقل معقول من رمزية النطاق الفضائي وحزم المعرفة، التي كان من المفترض على العرب أن ينتجوا ما يؤهل ردم أو تخفيف صدمة التكنلوجيا على الواقع (السبيراني) المخزي، الذي يعتري توزيع معطيات المشاركة على مستوى اللغة أو كمية المعلومات أو نوعها أو استرجاعها، فالواقع العربي يشير إلى الارتفاع الهائل في استهلاك منظومة المعلومات الوافدة بكل صنوفها (العلمية والثقافية والترفيهية والاعلامية) (مصادر الاخبار)، فضلاً عن آلية تشغيل التكنلوجيا نفسها والمتعلقة بالبرامج أو تقنيات الصناعة السمع بصريات، ومن يتفحص مخرجات التعرض الاتصالي المتزايد للمتلقي العربي للوسائل الرقمية الجديدة (ووصول بعض فئاته إلى حالات الادمان)، يرى هناك تدفقاً تأثيرياً في مجالات عدة منها:

1 ـ بحكم طغيان ثقافة الصورة وإحلال الرمز الصوري محل الفكرة السطرية، كان الآفق الثقافي والامتداد المعرفي لا يشير إلى اتساع وعمقيه الاستخدام بحكم التواتر والاستمرارية تلك، إنما يشير إلى تراجع قاموسيه المتلقي العربي وتربية حس النقد والتحليل واستخدام رموز الذاكرة، سواء أكانت على مستوى الاتصال الشخصي أم على مستوى مخرجات الإعلام والصحافة بشكل خاص.

2 ـ تدفق المزيد من القيم والسلوكيات والانماط والمعارف، والتي بحكم الوفرة غير المسبوقة أصابت العقل العربي (بثنائية التقاطع) على مستوى التلقي، ومن ثم التبني ومن ثم التغيير، أي أن ما يجري تصديره من الأخر، وبالأحرى استهلاكه ضمن مفهوم (التعّلم أو الاستطلاع أو التعّرف) كان قد عمل مفصل وخطوة للتناشز مع الواقع الفعلي، وما تعمله الرسائل المستقبلة من رسم واقع افتراضي متخيل، هذا الواقع الافتراضي سيزيد ويراكم الهوة وعدم القبول بما يجري على مستوى القيم أو الهوية أو أية مرجعيات يمكن لها أن تدعم(عناد التغيير).

الوفرة غير المسبوقة أصابت العقل العربي (بثنائية التقاطع) على مستوى التلقي، ومن ثم التبني ومن ثم التغيير.

فلا زال الشباب العربي يعيش في نشوة الضياع الإعلامي وأوجد له الشرعية في ذلك، عندما كشف أن معامل التغيير العربية والمحلية، لم تدخل الساحة لاحتوائه أو للتعبير عن حاجاته الاتصالية المتجددة والمتفاعلة مع حتمية التقانة الكونية.

3 ـ لا زالت قنوات الإعلام العربية تجعل من السياسة مرادف للإعلام، وبذلك انطوى الخطاب السياسي على تلميع صورة من يحكم أو يقود السلطة، سواء أكانت الانظمة القديمة أم المنحدرة من ثورات التغيير الأخيرة، فمعظم مفاصل البرامج والنشرات الاخبارية واشكال التغطية والوصلات الحوارية، تميل إلى المحادثة السياسية والصراع من أجل اثبات صحة وديمقراطية الفعل السياسي أو صحية الخلاف ومقاربات الدستور. . . الخ.

4 ـ وبحكم تربع العرب على أعلى امتلاك لوسائل إعلام سواء أكانت الفضائية منها أم المواقع الالكترونية أم الصحف، وأن عملية التمدد والتوسع والتخصص في فتح تلك المساند الاتصالية العالية الكلفة المنخفضة التأثير، يحتاج إلى وقفة والى تساؤل: ما دواعي عمل أكثر من 400 قناة عربية مختلفة التوجه والنية والقوة والمصدر وبكلفة تشغيلية تتجاوز (10مليار$)، ماذا نريد بتلك الترسانة الاعلامية لهذا الجيل؟ أي جمهور نخاطب؟ وهناك اسئلة فرعية أخرى على الجانب الفني والابداعي، لا نريد أن تأخذ حيزاً أهم من العموميات، التي نحن في صدد رصدها وتحليلها، ومن ثم استخراج اشتغالاها وجدواها.

ثانياً: الواقع الافتراضي بديل للمواطنة

لا أحد ينكر نعمة التكنلوجيا على بني البشر، ولا أحد ينكر أن بعضاً من قوة الفرد ـ أي فرد ـ تأتي من كم وكيف يتعامل مع التكنلوجيا، تلك الكلمة التي اختزلت واسعدت الكثير من مفاصل ومفردات صعوبات الطبيعة ومنها التواصل الإنساني، فلا يمكن بأية حال مقارنة مهارات الافراد في التحكم بالمعرفة كما كان قبل قرون أو سنين، الماكنة تدون ويختزل معها أقراص الذاكرة الإنسانية في الخزن والانتقاء ومن ثم الاستخدام، هذا الواقع الجميل العنيف بكل مصادره قد أوجد لنا سُبلاً شتى لفهم العالم، والتطلع إلى التنبؤ على وفق حزم المعلومات المجهزة التي تمطرنا بها قنوات نقل التكنلوجيا، وكانت النزعة الانسانية تميل ومنذ القدم إلى تقصي الاخبار والمعلومات وتتساءل عن مخرجات حدوث الظواهر. . .

وهكذا سار الإنسان كائناً اتصالياً بامتياز، تعينه (الرمزية اللغوية) بأشكالها، ولم تتوقف ثنائية الإنسان وحب الاستطلاع ولن تتوقف، وبذلك تؤشر تقنيات التواصل على أنها الأكثر فعلاً في نتاجات الإنسان المعاصر، بحكم طابع الأثر الفوري التي تنتجه، جراء فعل التواصل ـ في المشاهدة أو القراءة أو الاستماع ـ ، وبذلك حينما نقول أن ثمة تلاقح وتزاوج غير مسبوق، قد حدث بين انسان العصر الحالي وبين تكنلوجيا الإعلام والاتصال، لسنا نغالي أن نقول ذلك من باب الوصف.

فعلى مدى العصور، يتشعب هذا الهوس الاجتماعي، كما يترسخ الهاجس الفردي للإنسان بتقصي المعلومات، حتى باتت اليوم في عصرنا هذا المجموعة الاكبر من (الشاشات) في حياتنا اليومية، وذلك اختصاراً للزمن المتراكم لتاريخ البشرية، حيث يتفاعل كل واحد منا بعشرات الشاشات في اليوم الواحد من قبيل (الاستشارة والفحص والمشاهدة والتشغيل)، من دون أن يفكر أو يشعر أو يخطط، ولا علاقة للعلم أو الامية بموضوعة سيطرة الشاشات على واقع حياتنا اليومي، فالكل يعيش على ايقاع شاشة التلفاز ـ الهاتف النقال ـ الكومبيوتر والانترنت والسيارة وساعة اليد والاي باد وشاشات الاعلان الطرقي. . .[17].

(17) رمزي ج. النجار، وجهة نظر وسفر: الإعلام.. التواصل..الربيع العربي (بيروت: دار النهار، 2012) ص15.

وفي ظل تلك الثنائية ـ ثنائية وسيلة الإعلام الفرد ـ كان الانسان العربي في

أعلى هرم التماهي مع تلك العلاقة، ليس بحكم الصدفة أو الحاجة أنما بحكم البيئة العربية التي اثقلها كاهل السياسة والحروب والصراعات وهول احتلالات متعددة، ومن ثم السجن المعرفي التي قادته السلطات السياسية واجبرته على متنفس أوحد، وهي قنوات السلطة وشعارتها وبطولاتها، مما أفرغت تلك العلاقة من أية انتماء بين المحتوى الإعلامي ومخرجات استهلاكه.

وكان المد الإعلامي في أبان النشاط الستيني والسبعيني للأعلام العربي، يرتكز على صراع الوجود مع اسرائيل، والاتكاء على عبور قناة السويس المصرية، وانتصار العرب في حرب التحرير 1973، وقد استطاع الإعلام العربي إلى حد كبير من أن يطيح بشعور الاستكانة وفقدان الأمل، الذي كان يلف الجماهير العربية بعد النكسة، ومتغيرات الحرب الباردة التي كانت رحاها تدور بين الروس والمعسكر الغربي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية.

عند ذلك تراوح تأثير وسائل الإعلام العربية على متغير المواطنة، باعتباره ليس القيمة الحقيقية للمواطن، بقدر ما كان الحاكم أو القائد والذي بأذياله سترتبط المواطنة، هذا الارتباط العجيب الذي حكم العرب ومواطنتهم وانتمائهم على الأقل في حدود الحاضنة السياسية والشؤون العامة، بدأت ملامحه تظهر حينما اكتشفت بعض الشعوب العربية، أنها كانت تعيش فكر الاساطير وميثولوجيا عقيمة، وأنها خطابات الزعماء والاحزاب والمصلحين ومن يتربع على عرش التأثير، كانوا مجرد دعاة وحماة لأشخاص ولظرف، وأن الجهد الإعلامي الماضي ليس مواطني ـ من المواطنة ـ ولا يتعلق بثقافة وهوية وتنمية شعب بقدر ما يبرر بقاء الحكام وترسانتهم السياسية، كما كان ذلك في العراق، وليبيا وتونس ومصر وملامحه بدأت في دول الخليج وبلدان أخرى تحاول تصحيح الخطاب.

وعلى الرغم من أن المواطنة والهوية مصطلحان غير خاضعين للقياس والمناقشة في ظل مجتمعات ساكنة وغير متغيره، إلا أنهما يكشفان عن نفسيهما إلا في حالات التغيير أو الانتقالات الكبرى كتغيير بنية النظام، أو الانتفاضات الشعبية أو الدراسات الميدانية الكبرى، وترتبط المواطنة والهوية الوطنية بمؤشرات لطبيعة النظام السياسي، وهيكل عمله من معايير الحكم

الصالح، والحكم الصالح بالضرورة ينتج لنا حزمة من منشطات تدعم المواطنة وتصونها وتجذرها وجدانياً وادراكياً[18]:

- وجود شرعية للسلطة نابعة من سلطة الشعب.
- وجود المواطنين في قلب عملية صنع القرار.
- وجود برامج مركزها المجتمع وتقوم على الإصغاء للمواطنين.
- التكيف السريع من قبل الإدارة العامة مع حاجات المواطنين في تحديد التمويل العام واتجاهات إنفاقه. وقد تم استنباط من هذه المقومات الأساسية الأربع معايير تشكل مؤشرات على صالحية الحكم، وتتوزع هذه المعايير بين معايير سياسية واقتصادية واجتماعية وإدارية.

(18) ينظر تفصيلاً في: كامل القيّم، وسائل الإعلام والهوية الوطنية: في كتاب المواطنة والهوية العراقية عصف احتلال ومسارات تحكم، المؤتمر الثالث لمركز حمورابي للبحوث والدراسات الاستراتيجية (بيروت: بيسان للنشر والتوزيع2011،) ص ص 211- 2014

إن المشكلة الكبرى في الإعلام العربي لا تتجلى فقط في مهارات المسح الاجتماعي والدولي والاقليمي للشؤون العامة (خرائط الانتقاء)، بل والأخطر هو الجمود في التماهي مع متلقي نشط وعنيد ومتحكم الكترونياً، ومن ثم كانت حدود التأثير باهتة ولنقل ضعيفة ليس على مستوى التثوير أو نقل الاحداث أو استخدام رموز التحريك للشارع العربي.

الفشل الإعلامي في اللحظة التاريخية الكبرى التي نعول عليها، قد يقود العرب إلى مزيد من التيه في الهوية والتأرجح في المواطنة.

والفشل الإعلامي في اللحظة التاريخية الكبرى التي نعول عليها، قد يقود العرب إلى مزيد من التيه في الهوية والتأرجح في المواطنة، بعد أن يهرب وتهرب منه وسائل الإعلام بوصفها دون فحوى ودون مضمون يعصف بالمتلقي بعد الثورات، والمشهد الذي نتأمل منه انقلاباً في مستوى الفكر والتوجه والاساليب والنظريات وطرق الاستمالة المختلفة، حتى يمكن لها أن تكون بمستوى ميادين التحرير الذي رسم للشباب العربي أفق جديد وهوى جديد أساسه الإحساس بالأنا المجتمعية وليس السياسية.

إن الانقلاب الكبير الذي حصل في طاقات الشباب العربي والذي سيحصل بالضرورة، لا يمكن أن يُطفأ أو يذوب في متاهات السياسات وتشكيلاتها ومشكلاتها، وبالتالي يمكن أن تفلت منا تلك الجذوة الرائعة التي غدت فرصة كبرى لتوحيد النفوس، وللإشعال منار المواطنة على أعلى مرتفع،

والمواطنة هنا ليست بالضرورة تلك (للوطن القطر)، بقدر ما تكون للواقع الشامل لأزمة العرب مع الدور والهوية والواقع والمستقبل.

وختاماً يمكن القول، هل نحن أمام هوية جديدة ومواطنة تلقى بظلالها على الاثنية، والمناطقية، والحزبية، واسقاطات التاريخ؟ هل سيغدو التاريخ مشكلة أم حل؟ هل نستطيع الاحتفال بعرس جديد لبطل جديد اساسه واقع المواطنة المنظم، والهوية المتخمة بالفعل ـ كما فعلت أروبا ـ هل نستغل الفرصة لإعادة اعمار العقل والتوجه والتربية وتشكيل الصورة الذهنية المنتجة على حساب طغيان ـ صورة النمط المتعثر ـ .

وعليه ومن أجل تنظيم المدخل الاتصالي الفضائي للعرب من بابه الاوسع، وبشرعية علمية تديم وتدعم وتصنع يافطة جديدة للتأثير على دواخل افرادها، وعلى مساحات الرأي العام الدولي نرى أن نسير على وفق الآتي:

1 ـ إجراء مجلس عربي للإعلام يعيد تنظيم وتوجيه المضمون الإعلامي العربي، بما ينسجم مع المتغيرات التي عصفت بالشارع العربي، يكون اساسه (المواطنة، والذات الثقافية، ويتولى تأسيس نظام مراقبة للشأن الإعلامي العربي يرصد الفوضى والتحريض والأنا الدينية والمذهبية والاخلاقية التي يعج بها الفضاء العربي).

2 ـ على الحكومات في الأقل (المنتخبة)، والتي تكونت بالطقس الديمقراطي وببعض معايير الحكم الصالح، أن تتصالح مع وسائل الإعلام وتعترف (تشريعياً)، وضمن قوانين جديدة لتطلق العنان لدوره الجديد في تنوير الرأي العام.

3 ـ توجيه المؤسسات الاعلامية الممولة والمملوكة من شخصيات أم احزاب أم مجهولة الهوية أم الاجنبية (الناطقة بالعربية)، على اعطاء حصة برامجية لمتغير (الهوية والمواطنة والتربية الديمقراطية وحقوق الانسان والطفل والمرأة).

4 ـ إعادة منظومة الانتاج التلفازي والسينمائي بالشكل الذي يحاكي ويتفاعل مع متطلبات التقنيات والمضامين الحديثة.

5 ـ انشاء مراكز ابحاث وطنية أو عربية تقوم بتحليل ورصد الظواهر الاعلامية والمهارات وبنية التلقي الاعلامي.

6 ـ تشجيع المبادرات الشخصية والمؤسسية ومنظمات المجتمع المدني على الدخول إلى التأثير الفضائي، والتشارك في المحن والازمات الكبرى التي يعاني منها العرب، على مستوى مستقبليات العلاقات الدولية والاقليمية، وأزمة الهوية والمواطنة التي باتت مهددة بشكل غير مسبوق وواضح.

7 ـ العمل على تبني نظريات اعلامية حديثة للتواصل مع خيال وإمكانية ومهارات جديدة، تتفاعل مع الفضاء ورسائله (كحتمية تقنية).

8 ـ إعادة النظر في مناهج تدريس الإعلام والسياسة والاقتصاد بشكل جذري، بالشكل الذي يتماشى مع متطلبات العصر وفروضه الالكترونية والنزعة إلى الكونية العلمية.

9 ـ المصالحة وتأكيد على رموز التأثير السائدة والفاعلة، التي أطاحت بالحكومات المتسلطة، والعمل على اذكائها واستذكارها كوسائل ساندة.

10 ـ رسم خارطة طريق عربية لإعلام الطفل العربي تحت مظلة تكنلوجيا المعلومات والاستقبال الرقمي وتواتر حزم الافلام والمسلسلات والأغاني والبرامج التي تثير ما تثير من ضرر ثقافي ونفسي واجتماعي.

11 ـ فضح ومعاقبة الفضائيات وقنوات الإعلام الأخرى، التي تزحف ضد تيار الوحدة الوطنية، وترسي ممارسة العنف الطائفي والدولي وتبارك الإرهاب والقسوة السياسية على المتلقين.

12 ـ حجب كل ما من شأنه أن يبارك الانظمة السابقة والمتجبرة، وكل اشكال التسلط والعنف ويبارك الارتماء في أحضان الغرب أو من يمثلهم، بما يعود ذلك على ضعف المواطنة والتقليل من شأن العقلية الجديدة للمواطن الفضائي.

13 ـ استغلال الفضاء ونعمته وتقنياته في تعديل صورة العرب والمسلمين، بعدما امتلكنا كل أدوات التأثير وأحدثها، والعمل على ترميز خطاب دولي يليق بدور العرب كأمة محبة وسلام وتحضر.